الحج وأعمال القلوب.. نماذج إفريقية

ليس الأمر هيناً أن يتجرّد القلب من كلّ منازع وشاغلٍ ليصفو لله تعالى وتبارك، بل إنّ ارتقاءً القلب وسموّه إلى مقام التوحيد الخالص يحتاج إلى تضحياتٍ جسام، وجهدٍ دؤوب، وتربيةٍ شاقة في كلّ لحظة من لَحظاتها، ليتخلّص القلب من كلّ شائبةٍ تحول بين إقبال القلب وإذعانه لمولاه.

والحج من أعظم مقاصده تجريد التوحيد لله تعالى وتربية النفس على الإذعان والاستسلام له سبحانه، منذ أن يتجرد من ملابسه ويكتفي بالإزار والرداء، ويلبي معلنًا التوحيد: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك ..»، إلى أن يتم أعمال الحج.

وفي هذا السياق؛ يمكننا أن نسأل: لماذا جعل الله مكّة المكرمة صحراء مجدبة مشمسة، ولم يجعلها أرضاً خضراء وجناناً وارفة الظلال؟

والجواب – والعلم عند الله –: لتتهاوى كلّ المقاصد والرغبات إلا مقصود الله ورضاه، وإمعاناً في تحقيق هذا المعنى الدقيق كان لزاماً على الحاجّ ترك محبوبات مكة، كالكعبة والمسجد الحرام والحجر الأسود، بل أرض الحرم، ليتربى قلب الحاج على المقصود الأعظم الذي هو العبودية لله تعالى، وليس شيئاً آخر، فيخرج الحاجّ إلى عرفة، وعرفة خارج حدود الحرم صحراء جرداء، لا تلتفت لها النفوس ولا تذكرها القلوب إلا في هذا اليوم فحسب، وليس شيءٌ من عرفة له تعظيم، وهنا يتجلّى أنّ المقصود هو تحقيق ذلّ العبودية ولذة المناجاة.

وهكذا لو جرينا على مناسك الحج الأخرى لظهرت صورٌ أخرى تعمّق هذا المعنى وتَستظهرهُ، والمقصود أن يكون العبد باحثاً عن مقام التوحيد في قلبه، يستكشف عور نفسه وضعفها، ليبلغ افتقاره لربه غايته ومداه، وليستزيد من الله وقود الإيمان، ما يجعله يبلغ درجة سابقة في شتى أعمال القلوب، فهو مضطرٌ مفتقرٌ إلى الله تعالى، يوقن بعظيم منّته ورحمته وعظيم انتقامه وجبروته، فتزداد نفسه خضوعاً وذلاً وعبودية.

وفي هذا المقام؛ نجد أمامنا نماذج إفريقية عظيمة، استطاعت أن تصل إلى هذا المستوى الراقي من أعمال القلوب، وتتمثل فيها مدرسة في التقرب إلى الله، والتجرد له، في سبيل تحقيق التوحيد، من خلال الرحلة إلى أداء الركن الخامس من أركان الإسلام.

ففي جانب التضحية والمجاهدة تمثّل رحلة الحج من إفريقيا، وخصوصاً رحلات المناطق الغربية، نماذج بارزة، وصوراً مبهرة، لا تزال ماثلة في التاريخ لمن أرد أن يتعلم منها الإقبال على الله تعالى، والمجاهدة في سبيله، والتجرد من الدنيا.

ولكي نتصور هذا ونعيش في أجوائه؛ لتتأمل معنا – أخي القارئ – كيف كانت رحلة الحج في إفريقيا تستغرق شهوراً طويلة أو سنة أو سنوات كاملة، حتى يعود الحجاج إلى بلادهم وديارهم، كان الحجاج الأفارقة يُقدمون على رحلة الحج وهم يعلمون مدى ما فيها من مشقةٍ في السفر، ومخاطر الطرق، والأهوال، والتعرض للأمراض المختلفة، وكلفة الرحلة، وعلى الرغم من ذلك كانوا مقبلين على أداء الحج، تهفو أنفسهم إلى مكة المكرمة، حتى كان أهل الدار يحجّون كلهم، لا يبقى فيها أحدٌ من شدة اعتنائهم بالحج وحرصهم عليه، بل كان منهم مَن يحمل كلّ متاعه في الدنيا ويكتب وصيته لطول الرحلة،

ومظنـــة الهلاك في أثنائهـــا، والمدهش أنه مع كلّ ذلك كانـــت أعداد الحجاج الأفارقة في تلك الأزمنة كبيرة، إذ يقدّر عدد الحجاج ســـنوياً في (الركب الشنقيطي)[1] وحده، في تلك الفترة، ما بين (٣٠٠٠ – ٥٠٠٠) آلاف حاجّ، وهو رقمٌ كبيرٌ في ذلك العصر.

وفـــي جانب آخر من جوانب أعمال القلوب، وهو التجرد من متاع الدنيا والزهد في محابها، فإنّ من أعظم ما يصـــرف العبد عن إرادة الله والدار الآخرة إلـــى إرادة الدنيا هي (المحاب)، كالمحابّ الثمانية في سورة التوبة: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَـــوْنَ كَسَـــادَهَا وَمَسَـــاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِـــقِينَ﴾ [التوبة : ٢٤]، والمحابّ السبعة في آية آل عمران: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّـــهَوَاتِ مِنَ النِّسَـــاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِـــكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران : ١٤].

وتتسم عبادة الحج بخالصة لا تكاد تكون إلا فيه، بجعل الحاج يضحّي بـــكلّ محبوباته تلك، التي تزاحـــم محبة الله تعالـــى، حتى لو كانت مجبولة أو مشـــروعة، فهو يترك – مثلاً – طفلاً رضيعاً، وزوجة محبة، وأماً رؤوماً، وبيتاً تســـكن فيه نفســـه، وتجارة تجري بدمـــه، ومالاً ذهب عمره وهو يجمعه؛ وليس هذا فحســـب، بل إنه إذا شرع في الإحرام تجرّد من محبوبات ألفتها نفسه؛ برغم أنها مباحة في الأصل، لتصبح بعد إحرامه محرمة.

وفي هذا الجانب، نجـــد النماذج الإفريقية المبهرة، فـــي التخلي عن هـــذه المحاب، ومن أبرزها سلطان مالي منسا موسى سلطان مالي، في عام ٧٢٤هـ / ١٣٢٤م، الذي أنفق من الذهب ما يتقاتل عليه الناس والملوك، وقد أشـــاد كثيرٌ من أمراء مصر بطيبته وحُســـن أخلاقه وكرمه وصلاحـــه، ولم يكن عطاؤه وســـخاؤه مقصوراً على الحجـــاز ومصر، بل كان يلقي بالذهب هنا وهناك، وأنعم علـــى كلّ القبائل التي كانت تقيم علـــى طول الطريق منذ خروجـــه من بلده حتى وصوله إلى مكة المكرمة[2].

ولا تقتصر فوائد الحجّ التربوية على أعمال القلـــوب، بل كان لرحلات الحـــج فوائد عظيمة أخرى، على مرّ التاريخ الإســـلامي في إفريقيا، فكلّ رحلـــة مثلّت تجربة ثريـــة، ليس في حياة الأفارقة من الحجيج فحســـب، بل تعدى أثرها واتســـع مداها بحســـب ما تهيأ من الأسباب، وأحاط بها من ملابسات.

وقد حرصنا في هذا العـــدد على أن نقدّم دراسةً مفصلةً عن رحلات الحج الإفريقية، وما كان يسودها من حيويةٍ ونشاطٍ وتفاعلٍ اجتماعيٍّ ودينيٍّ وعلمـــيٍّ وثقافي، وما كان لتلك الرحلات من تأثيراتٍ عامّةٍ في حياة المســـلمين الدينية والعلميـــة والثقافية والاجتماعية والسياســـية والاقتصاديـــة، مما نحتاج إلى أن نســـتثمره في تصفية القلـــوب، وتنقية النفـــوس، وبناء وَعْي إيمانيٍّ يســـاهم في بناء المجتمع المســـلم في إفريقيا ■

(١) بوابة إفريقيا الإخبارية، دور الرحالة الموريتانيين في التواصل الحضاري بين ليبيا وموريتانيا.. ابن طوير الجنة نموذجاً، محمود المعلول – كاتب وباحث ليبي.

(٢) نبيلة حسن محمد، في تاريخ إفريقية الإسلامية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٧م، ص ٢٤٦.